مجلة علمية يصدرها مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، الجمهورية العراقية

هدف الجاحظ من تأليف كتابيه الحيوان والبيان والتبيين

الدكتور مصطفى عبداللطيف جياووك
كلية التربية ـ جامعة البصرة

من اول مايطالع قاريء كتاب الحيوان تلك الخصومة التي يسجلها الجاحظ حول «الكتاب نفسه، وحول كتبه كلها، وحول الكتاب في مسيرة الحضارة الانسانية كلها.. «ثم لم ارك رضيت بالطعن على كل كتاب لي بعينه حتى تجاوزت ذلك الى ان عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال، وكيف تصرفت بها الوجوه، وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم، حتى عبت الكل بلا علم ثم تجاوزت ذلك الى التشنيع، ثم تجاوزت ذلك الى نصب الحرب، فعبت الكتاب، ونعم الذخر والعقدة هو... الخ.»[1]

وفي رأينا ان هذه الخصومة ليست الا شكلا مسرحيا اراد ان يعرض فيه اراءه المختلفة ونتائج تجربته الطويلة، وان يرد على مآخذ شتى اخذها عليه ناقدوه، لم تصدر من ناقد واحد ولاهي مما صدر في معرض واحد. وهو امر بديه لازم، اذ المتصور في طبيعة الامران النقد بدأ من اول كتب الجاحظ ورافقه في حياته الخصبة الثرة، واما قولنا ان هذه الخصومة اداة فنية اصطنعها الجاحظ فليس ببديع من القول في الادب العربي، فما اكثر مااصطنع شعراء العربية من الجاهلية خصومات حول الكرم

١ - الحيوان ١/٣٨

والشجاعة والرحلة ونحوها[2]، يفتحون بها الباب يعرضون من خلاله الرأي واخاه والحجة وما يفندها، ووراء هذا الشكل الفني يقف هاجس الجاحظ وقلقه الدائم: ان يمل القارىء وينصرف عنه، ويقطع صحبة كتابه، فتراه يدفع ذلك بالتفنن والتفريع، والنقلة بين جد وهزل، ومن الشعر الى النثر وبالقفز فوق موضوعه والعودة اليه، وبلغ به هاجسه هذا ان يرضى بالتذبذب بين هبوط وارتفاع، وان يخل بأستواء النسج الفني حتى يصل الى مايسميه سخفا «متى يفضي به الى مزح وفكاهة، والى سخف وخرافة»[3] وبعض ذلك فيما نرى من اثار استاذه الاصمعي في نفسه، فقد كان يحب ان يتفاوت مستوى الشاعر والقصيد «وذكر بعضهم شعر النابغة الجعدي فقال: «مطرف بالآف، وخمار بواف، وكان الاصمعي يفضله من اجل ذلك وكان يقول: الحطيئة عبد لشعره» عاب شعره حين وجده كله متخيرا منتخبا مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه. وقالوا لو ان شعر صالح بن عبدالقدوس، وسابق البربري كان مفرقا في اشعار كثيرة لصارت تلك الاشعار ارفع مما هي عليه بطبقات... الخ»[4]

فهذه الصورة من الحوار والجدال كانت في بال الجاحظ حين بدأ كتابه في الحيوان، افاد منها في المقدمة ليعرض بها هدفه من كتابه ومنهجه في تأليفه وليعلل تفكيره بالتأليف في موضوعه وينقد ماألف فيه قبله.. وصاحبته هذه الصورة بعد ذلك فرأيناها في تلك الخصومة الطويلة في الكلب والديك، ولانظنه يذهب على الدارس ان هذه الخصومة ليست نصا مكتوبا او محفوظا نقله الجاحظ نقلا الى تأليفه، ولايخلو

---

٢ ـ من ذلك النصوص المشهورة التالية:
لعنترة: بكرت تخوفني الحتوف... الخ.
للاعشى:
تقول ابنتي حين جد الرحيل
لعروة بن الورد:
تقول سليمى لو اقمت لسرنا ولم تدر اني للمقام اطوف

لحاتم الطائي:
اماوى ان المال غاد ورائح

٣ ـ الحيوان ١/٩٣ ـ ٩٤.
٤ ـ البيان والتبيين ١ / ٢٠٦.

امر هذه الخصومة من ان تكون انشاءاً وابتداعاً خالصاً او روحا جاحظيا نفخ في نواة مأثورة منسوبة الى صاحبيها[٥] . . على ان الجاحظ لم يقطع حواره مع المعترض على كتبه قطعا ولم يستأنف رواية الحوار بين صاحب الديك والكلب استئنافا . . فنحن نجد ان المعترض على كتابه هو الذي يجر الحديث حتى يصله بالكلب، ومنه الى المسخ والخلق المركب . . وذلك قول الجاحظ : «وقولك: ومابلغ من قدر الكلب مع لؤم اصله وخبث طبعه وسقوط قدره . . . حتى كأنه من الخلق المركب والطبائع الملفقة . . . وزعمت ان الكلب في ذلك كالخنثى، الذي هو لاذكر ولاانثى او كالخصي» .[٦]

ماكتبه الجاحظ في صدر الحيوان اذن مقدمة اراد ان يبعد عنها الاملال فجعلها في صورة حوار . . وهو في هذه المقدمة يوزع احتجاجه في سياقين، اما السياق الاول فهو ان ماالف قبله في الحيوان لم يعد يفي بالحاجة، ولاهو بالسالم من العيوب الفاحشة ولا مما يؤمن معه من الخطر والزلل .

واما السياق الثاني فأثبات حق للامة في ان تؤلف في الحيوان وفي غيره من المواضيع، وفي وجوه انتفاعها من التأليف، والمصالح التي توجب عليها وضع الكتب في ابواب العلم . وتبدأ بما قاله الجاحظ لينفي صلاح الكتب القديمة لعصره ولأمته واول ذلك حديثه الطويل عن الفساد الذي يعرض للكتب والتغيير الذي يصيب اراء المؤلفين، على توالي النقل وتعاقب النسخ، حتى ليرى المؤلف نفسه ان تأليف كتاب جديد ايسر واقل مشقة عليه من اصلاح كتابه الاول . «ولربما اراد مؤلف الكتاب ان يصلح تصحيفا او كلمة ساقطة فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني ايسر عليه من اتمام ذلك النص حتى يرده الى موضعه من اتصال الكلام . . .»[٧]

والترجمة مصدر اخر للتغيير على المؤلف القديم وتشويه علمه وفساد الترجمة يأتي الكتاب من بابين اذ هي محتاجة عند الجاحظ الى رجل هو اعلم الناس باللغتين المنقولة والمنقول اليها . ومتى قل علمه بأحداهما كانت ترجمته ـ لابد ـ فاسدة . . ومثل هذا

---

٥ ـ الحيوان ١ / ٧٩ يقول الجاحظ : . . لكنا اذا اردنا مواضع التدبير العجيب من الخلق الخسيس، والحس النظيف من الشيء السخيف . لم نذهب الى ضخم البدن وعظيم الحجم، ولا الى المنظر الحسن ولا الى كثرة الثمن . . وانما قصدنا الى شيئين يشيع القول فيهما، ويكثر الاعتبار مما يستخرج العلماء من خفي امرهما، وتوجعنا بين الديك وبين بعض ماذكرت، وبين الكلب وبين بعض ماوصفت لانقطع القول قبل ان يبلغ حد الموازنة والمقابلة» .
الجاحظ حياته واثاره، د. طه الحاجري . مصر دار المعارف، ١٩٧٩ ص ٤٠٣ .

٦ ـ الحيوان ١ / ١٠٢
٧ ـ الحيوان ١/ ٧٩ .

المترجم معدوم مستحيل عنده. وينبغي ان يكون اعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيهما سواء وغاية. ومتى وجدناه ايضا قد تكلم بلسانين علمنا انه قد ادخل الضيم عليهما... الخ[8] وهذا اشكال قد يحسب الناس حله ممكنا بأجتماع رجلين يستقل كل واحد منهما بلغة ويبلغ التمام فيها ويجتمعان على ترجمة الكتاب... والجاحظ يرد ذلك، بأن احداهما لن يكون قادرا على معرفة القصور في عمل الاخر، فهو مضطر الى التجاوز والاغتفار «ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يرمي الى الحاذق بلسان العربية ثم كان العربي مقصرا عن مقدار بلاغة اليوناني لم يجد (المعني) والناقل التقصير، ولم يجد اليوناني الذي لم يرض بلاغته في لسان العربية بدا من الاغتفار والتجاوز.[9]». والعيب الاخر في الترجمة يأتي من ان المترجمين لايبلغون مبلغ مؤلفي الكتب في ابواب العلم المختلفة، وهم بهذا يسيئون فهم مايترجمون وتغيب عنهم مقاصد العلماء ويخطئون في نقل مصطلحهم، وشرط الجاحظ في الحق متعسف معجز. فهو لايرضى بأن يترجم ارسطوالا من كان بمنزلة ارسطو في المنطق او الحيوان، ولا ان يترجم افلاطون من كان دونه في حكمته. «فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وابو قرة وابن وهيلي وابن المقفع مثل ارسطاطاليس، ومتى كان خالد كأفلاطون.[10]» ولايقف الجاحظ عند التقدير والظن فهو يجزم بأن ابن البطريق، وابن قرة لايصلحان لترجمة اي كتاب من كتب الدين او ماله صلة بالعقائد لانهما لايدركان الفساد الذي يعرض بالترجمة او النسخ لاراء المؤلفين واحتجاجهم «وماعلم المترجم بالدليل عن شبه الدليل، وماعلمه بالاخبار النجومية، وماعلمه بالحدود الخفية، وماعلمه بأصلاح سقطات الكلام، واسقاط الناسخين للكتب، وماعلمه ببعض الخطرفة لبعض المقامات، وقد علمنا ان المقدمات لابد ان تكون اضطرارية، ولابد ان تكون مرتبة، وكالخيط الممدود. وابن البطريق وابن قرة لايفهمان هذا مرصوفا منزلا ومرتبا مفصلا من معلم رفيق، ومن حاذق طب، فكيف بكتاب قد تداولته اللغات، واختلاف الاقلام، واجناس خطوط الملل والامم[11]».

ولعل الجاحظ يشير في هذه العبارة الاخيرة الى القرآن الكريم والحديث الشريف وهو يعلم يقينا انهما يجهلان علمهما مع انهما حاضران سليمان لم يغير احد منهما شيئا

---

٨ ـ الحيوان ١ / ٧٦.

٩ ـ الحيوان ١ / ٧٨. المعنى كذا جاءت. ويبدو لي انه تحريف صوابه لم يجد المعبّر والناقل التقصير.

١٠ ـ الحيوان ١/ ٧٧ ـ ٧٨.

١١ ـ الحيوان ١ / ٧٨. والقرآن الكريم موصوف بأنه مفصل تفصيلا، ومنزل تنزيلا.. ومنه الايات، الاسراء ١٧، الانسان ٧٦، والانعام ٩٧، ٩٨، ١٢٦... الخ.

بالتحريف او افساد الترتيب واذا كانا يعجزان عن فهم نص عربي صحيح فاش في الناس تلاوة وتفسيرا فليس شك في عجزهما عن ادراك نص قديم لايكاد يعرف . .

ويمضي الجاحظ في تبيان الخلل الذي تسببه الترجمة والنسخ حتى يصل الى حكم قاطع عجيب، وذلك قوله: «ولايزال الكتاب تتداوله الايدي الجانية، والاعراض المفسدة حتى يصير غلطا صرفا وكذبا مصمتاً، فما ظنكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالافساد، وتتعاوره الخطاط بشر من ذلك او بمثله، كتاب متقادم الميلاد، دهري الصنعة[12] وهذا الكتاب في رأينا هو كتاب الحيوان لارسطو. يطلب الجاحظ منا ان ننزع الثقة من الموجود منه في العربية لأيامة مما ترجمه ابن البطريق او غيره. . لانه غلط صرف، وكذب مصمت. . وهو ماجاء في تعليقه على بعض نقوله من ارسطو كقوله: «لعله ان وجد هذا المترجم ان يقيمه على المصطبة، ويبرأ الى الناس من كذبه عليه ومن افساد معانيه، بسوء ترجمته[13].

والحيوان اسبق زمنا من البيان والتبيين[14]، او من بعضه كما يذهب الاستاذ الدكتور طه الحاجري[15] الذي يرى ان الجاحظ الف البيان اثناء تأليف الحيوان وبعد ان كتب قسما منه. . ومن هنا وجدنا الجاحظ لايبدي رأيا في مشاكل النسخ والترجمة في البيان، اللهم الا في التزوير ونسبة كتب الى القدماء لم يؤلفوها ولم تجربها اقلامهم، ويبدو ان الجاحظ يشك في الكتب المنسوبة الى قدماء الفرس ولايبريء اهل العصبية الفارسية في عصره من امثال ابن المقفع، وسهل بن هارون من وضع الكتب بالعربية التي اتقنوها وصاروا من البلغاء فيها زاعمين انها من تأليف اسلافهم بالفارسية، وانهم انما يترجمون نصوصها، وهذه الكتب في ظاهر الامر من كتب الادب وسير الملوك والتواريخ.

ونحن لانستطيع ان نعلم ان الرسائل التي بأيدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة اذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون، وابي عبيد الله، وعبدالحميد وغيلان يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير[16].

---

١٢ ـ الحيوان ١ / ٧٩.

١٣ ـ الحيوان ٦ / ١٩.

١٤ ـ مقدمة هارون في الجزء الاول من الحيوان ١ / ٢٦.

١٥ ـ الجاحظ ـ طه الحاجري ص ٤٢٣.

١٦ ـ البيان والتبيين. الطبعة الرابعة، مصر ١٩٧٥، ت عبد السلام هارون ٣ / ٢٩.

والظاهر ان الفرس وحدهم هم الذين كانوا يكاثرون العرب ويفاخرونهم في باب الخطابة بخاصة، وينقلون من الفارسية نصوصا من خطب اسلافهم، وان المترجمين عن اليونانية والهندية لم ينقلوا الى العربية شيئا من هذا النوع. . ولم يدعوا للهند او لليونان مثل ما للعرب من البلاغة والخطابة. . . ونحن على كل حال نجد الجاحظ افرد الترجمة عن الفارسية بعيب الوضع والتوليد، زيادة على مااخذه على الترجمة عن الالسنة الاخرى. . من فساد عظيم يأتي به تعاقب النسخ والجهل باللغات والعلوم.

ونحن الى الان انما استعرضنا ماقاله الجاحظ لينسف الثقة بالنصوص العربية من كتب اليونان والفرس والهنود، وله كلام اخر في انها سيئة التأليف صارمة الاسلوب مستغلقة المعاني [١٧]. في اصل وضعها.

ولنبدأ استيضاح الشق الثاني من كلامه الذي يبرر به تأليف كتابيه في الحيوان والبيان والتبيين وتوضيح هذا يمكن ان يكون في صورة اسئلة يجيب عليها الجاحظ: فما نفع العرب من تأليف الكتب؟ وما ضرورة ذلك للاسلام؟ ومايمنعه هو او غيره من علماء الامة من التأليف؟ اثمة مانع من العلم؟ ايوجد مانع من السياسة؟ ايصح ان يعد تأليفه كتابا في الحيوان وفي سائر ابواب العلم التي الف فيها قدماء المؤلفين كارسطو وافلاطون وجالينوس جرأة عليهم او غضا من مكانهم في تاريخ الانسان او عرامة وتسوراً وتنفجا منه ومن غيره من مؤلفي الاسلام؟

اما انتفاع العرب من التأليف فوجهه ان يفيدوا من الكتاب في تدوين منجزاتهم الحضارية ومفاخرهم وتواريخهم، وهم قد الفوا قديما ان يعتمدوا على الشعر في تخليد ذلك، ولقد اصطنعوا مع الشعر شيئا من العمارة التي يذكر الجاحظ من امثلتها غمدان وسنداد ومأرب ومارد والابلق والمشقر غير ان من الثابت المطرد في التاريخ ان الملوك يتلف بعضهم آثار بعض، ويمحو التالي ماشيد السابق «كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية، وعلى ذلك هم ايام الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان، وكما هدم الاطام التي كانت بالمدينة، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان»[١٨].

---

١٧ ـ الحيوان ١ / ٩٠ «الا ترى ان كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الامصار وبلغاء الاعراب لما فهموا اكثره. . وفي كتاب اقليدس كلام يدور وهو عربي وقد صفي ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه. . . الخ».

١٨ ـ الحيوان ١ ـ ٧١ ـ ٧٣.

وحاصل هذا الكلام ان العرب لم يبق لهم من تاريخهم القديم غير الشعر لانهم لم يعتمدوا على التأليف والكتابة في قديمهم ولانهم خسروا ماشيد ملوكهم ورؤساؤهم من العمارة، ويضاف الى ذلك ملاحظتان تتصلان بالشعر العربي اولاهما ان عمره لايقارن باعمار اثار الامم ودواوين حضارتها فهو اذن لايفي بتاريخ العرب ولاينقل الا اقله، «واما الشعر فحديث الميلاد، وصغير السن اول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة، وكتب ارسطاطاليس ومعلمه افلاطون ثم بطليموس وديمقراطس وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالتدهور قبل الدهور والاحقاب قبل الاحقاب. . فأذا استظهرنا الشعر وجدنا له الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[١٩].

والملاحظة الاخرى ان اقتدار العرب في انفسهم على الخطب والشعر جعلهم يهملون حفظه وتدوينه فضاع اكثر ادبهم وبقي اقله.

«وكل شيء للعرب فأنما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولامكابدة، ولا اجالة فكر ولااستعانة، وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام، والى رجز يوم الخصام اوحين يمنح على رأس بئر او يحدو ببعير او عند المقارعة والمناقلة او عند صراع او في حرب. . فلم يحفظ الا ماعلق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولاقصد ولاتحفظ ولاطلب، وان شيئا هذا الذي في ايدينا جزء منه لبالمقدار الذي لايعلمه الا من احاط بقطر السحاب. . الخ»[٢٠].

والباقي القليل من الشعر العربي صغير السن لايغني عن العرب شيئا كثيرا حين يكون بينهم وبين الامم من التفاخر والتنافس ماشيده عصر الجاحظ، ذلك انهم يترجمون الى العربية كتبهم وهي من النثر فلانفقد شيئا من قيمتها ثم يحتجون بها على كل عربي، اما الشعر العربي - وهو حجة العرب - فالترجمة تفسده والنقل يذهب بفضله، فالعربي لايستطيع ان يفاخر بشعره الا من كان عارفا بالعربية بالغا في تذوقها مبلغ اهلها. . . ويعني هذا ان كتب اليونان مثلا حجة لهم على من عرف اليونانية او جهلها اما الشعر العربي فهو حجة العرب على من عرف العربية فحسب.

«وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لايستطاع ان يترجم، ولايجوز عليه النقل. ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب لا كالكلام المشعور، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك

---

١٩ - الحيوان ١ / ٧٤.

٢٠ - البيان ٤ / ٢٨.

احسن واوقع من المنثور الذي تحول من موزون الشعر وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحولت اداب الفرس فبعضها ازداد حسنا وبعضها ماانتقص شيئا ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن»[٢١].

يقول الجاحظ اذن ان العرب كانت خاسرة اذ ظلت تقتصر في تخليد مآثرها على الشعر، وان هذا ينبغي ان يتغير، وان على الامة ان تستخدم الوسيلة المجربة الناجحة في تخليد المآثر ونقل المعارف بين الاجيال وهي الكتاب. . والا ظلت محرومة من النفع العظيم للكتب منقوصة بين الامم الاخرى ذوات التاريخ والحضارات.

ومايذكره الجاحظ من نفع الكتب دون الشعر كثير«ولولا الكتب المدونة والاخبار المخلدة والحكم المحطوطة التي تحصنّ الحساب وغير الحساب لبطل اكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار«ولو تم ذلك لحرمنا اكثر النفع.

«والكتاب هو الذي يؤدي الى الناس كتب الدين، وحساب الدواوين» «ولولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك وكل اقطاع وكل انفاق وكل امان وكل عهد وعقد وكل جوار وحلف» «وليس في الارض امة بها طرق او لها سكة ولاجيل لهم قبض وبسط الا ولهم خط، فأما اصحاب المملكة والسلطان، والجباية،

---

٢١ ـ الحيوان ١ / ٧٤ ـ ٧٥.

من الواضح ان كلام الجاحظ عن الشعر وعمره وترجمته ينبغي ان يفهم في سياق القضية التي يعالج اثباتها. . وعلى انه مقدمة من مقدماتها.

ان اجتزاء بعض عبارات الجاحظ قد يؤدي الى فهم مختلف تماما عن مراده. . ومثال ذلك ماوقع للدكتور احسان عباس الذي فهم كلام الجاحظ عن صعوبة ترجمة الشعر على انه يعني به الشعر اليوناني ويدعو فيه الى عدم ترجمته للعربية ـ لطابعه الوثني ولكونه ـ لو ترجم ـ منافسا للشعر العربي والبيان العربي ـ كما ذهب الى ان قول الجاحظ ان فضيلة الشعر مقصورة على العرب انه ينكر على غيرهم ان يكون لهم شعر ولم يرد الجاحظ ذلك ابدا ـ فالشعر العربي ـ وهو ديوان العرب ـ هو الذي لايمكن ان يترجم وافيا سالما الى اليونانية او الفارسية مع ان نثر الفرس واليونان ـ وهو ديوانهم ـ ترجم الى العربية فبعضه ازداد حسنا وبعضه لم ينقص منه شيء. . ومما يدل على ان ذلك هو مراد الجاحظ انه جزم بأن شعر الاعاجم غير موزون وانما هو كلام يسمونه شعرا. . فكيف يحسن بالترجمة وزنا ليس فيه.

واما قصر فضيلة الشعر على العرب فمراد الجاحظ فضيلة تذوق الشعر العربي وفهمه وادراك جماله، وهي مقصورة على العرب ومن تكلم بلسانهم فهو حجة على هؤلاء وليس حجة على من تكلم بغير لغتهم، انظر كتاب د. احسان عباس، ملامح يونانية في الادب العربي، ص ٢٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧ ولعل مما ساعد على تبديد قضية الجاحظ وتوجيه بعض مقدماتها الى غير مايريد تقطيع كتابه ـ الحيوان ـ تقطيعا مخلا واضافة عنوانات جديدة قبل ان تكتمل فكره وادلته. . ومثل ذلك يقال عن فصل كلامه في الترجمة عن كلامه في الشعر والنثر والكتب وفضل بعضها على بعض.

والديانة والعبادة، فهناك الكتاب المتقن والحساب المحكم» «وكل شيء في العالم من الصناعات والارفاق والالات، فهي موجودات في هذه الكتب دون الاشعار. . وحسبك مافي ايدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والنجارة وابواب الاصباغ والعطر والاطعمة والالات وهم اتوكم الحكمة، وبالمنفعة التي في الحمامات وفي الاصطرلابات والقرسطونات، والات معرفة الساعات. . . . الخ»[٢٢].

ويمد الجاحظ نظره الى تاريخ الحضارة البشرية، فيرى ان اخذ العرب بحظهم من التأليف مطلب انساني وسنة لابد ان يأخذوا بها كما يأخذ بها كل جيل من اجيال البشر، فيبني الابناء على ما أسس الاباء. . ويبدأ اللاحق من حيث انتهى السابق، ولاينبغي ان تدفع الرغبة في توقير الاوائل الى التقصير بالاواخر. . ذلك ان الحضارة الانسانية تنمو بأسرع مما كانت تنمو، وتخطو في العصور التالية خطى اسرع مما كانت تخطو ويعلم الاحفاد دائما اضعاف ماكان يعلم الاجداد، وعلى هؤلاء الاحفاد ان ينقلوا علمهم هذا الى من يليهم كما فعل الاجداد. .

«ثم اعلم ـ رحمك الله تعالى، ان حاجة بعض الناس الى بعض صفة لازمة في طباعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لاتزايلهم ومحيطة بجماعتهم. . وجعل حاجتنا الى معرفة اخبار من قبلنا كحاجة من كان قبلنا الى اخبار من كان قبلهم، وحاجة من يكون بعدنا الى اخبارنا»[٢٣].

«ولولا ماأودعت لنا الاوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من انواع سيرها حتى شاهدنا بها ماغاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم، وادركنا مالم نكن ندرك الا بهم، لقد خس حظنا من الحكمة، ولضعف سبيلنا الى المعرفة . . »[٢٤].

«وينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا، كسبيل من كان قبلنا فينا على انا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا، كما ان من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا»[٢٥].

ويحرص الجاحظ على ان يجري هذا القول العام على افراد العلماء واهل الاداب في عصره فيقرر ان دعوته الامة الى التأليف وهو حق لها وواجب عليها موجهة الى رجال الفكر فيها في واقع الامر. . ويحرص على ان يزيل مخاوف العلماء من النقد والتجريح،

---

٢٢ ـ الحيوان ١ / ٤٧، ٥٠، ٦٩، ٧١، ٨٠ ـ ٨١.

٢٣ ـ الحيوان ١ / ٤٢ ـ ٤٣.

٢٤ ـ الحيوان ١/ ٨٥.

٢٥ ـ الحيوان ١ ـ ٨٦.

ويشجعهم على معارضة الاسلاف من اصحاب الشهرة الواسعة والمكانة الراسخة، يقول الجاحظ في رسالته «فضل مابين العداوة والحسد : انه لم يخل زمن من الازمان فيما مضى من القرون الذاهبة الاوفيه علماء محقون قد قرأوا كتب من تقدمهم، ودارسوا اهلها . . وعرفوا بالفهم الثاقب والعلم الناصع، وقضت لهم المحنة بالذكاء والفطنة فوضعوا الكتب في ضروب العلوم، وفنون الادب لاهل زمانهم والاخلاف من بعدهم. يزدلفون بذلك الى الممتن عليهم بفضل المعرفة التي ركبها الله فيهم، وابانهم من غيرهم وفضلهم عليهم ويباهون به الامم المخالفة لهم ويتبارون بذلك فيما بينهم ولهم حساد معارضون من اهل زمانهم في تلك العلوم والكتب»[٢٦].

ويعلن الجاحظ عن الاختراع والابداع في بعض كتبه دون مواربة او تردد فالظاهر انه كان يحسب ماكتبه في الاخلاق جديدا لم يسبقه اليه احد من الاوائل لان ماوصله من كلام الاوائل في الاخلاق يتناول الفروع والمفردات ويساق في صور الحكمة والمثل والوصية دون ان يبين جوامع الاخلاق واصولها وعللها، او يدل على اعمال الفكر واستنباط القوانين «ورأيت كثيرا من واضعي الاداب قبلي قد عهدوا الى الغابرين بعدهم في الاداب عهودا قاربوا فيها الحق، واحسنوا فيها الدلالة الا اني رأيت اكثر مارسموا من ذلك فروعا لم يبينوا عللها، وصفات حسنة لم يكشفوا اسبابها، وامورا محمودة لم يدلوا على اصولها، فأن كان مافعلوا من ذلك روايات رووها عن اسلافهم، ووراثات ورثوها عن اكابرهم فقد قاموا باداء الامانة ولم يبلغوا فضيلة من استنبط»[٢٧].

واما رأيه في مبلغه من ذلك فصريح تقرأه في قوله :

«هذا كتاب ـ اطال الله بقاءك ـ نبيل بارع فصل فيه بين الحسد والعداوة ولم يسبقني اليه احد، ولا الى كتاب فضل الوعد الذي تقدم هذا ولا الى كتاب اخلاق الوزراء . . .[٢٨]».

ولعل الجاحظ كان يطالب علماء عصره بأن يكونوا مثله جرأة واصالة حين يعلن ان حرية العالم في القول لعصره كانت واسعة مكفولة وأن الاحجام عن اعلان الرأي واظهار العلم ليس له مسوغ . . «فما ينتظر العالم بأظهار ماعنده، ومايمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد امكن القول، وصلح الدهر وحرى نجم التقية وهبت ريح العلماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق القيان والعلم»[٢٩].

---

٢٦ ـ رسائل الجاحظ . ت عبدالسلام هارون ١ ـ ٣٣٨.

٢٧ ـ رسائل الجاحظ ١ / ٩٦ في المعاش والمعاد.

٢٨ ـ رسائل الجاحظ ١ / ٣٣٧.

٢٩ ـ الحيوان ١ / ٨٩.

«فما ينتظر الفقيه بفقهه، والمحتج لدينه، والذاب عن مذهبه ومواسي الناس في معرفته، وقد امكن القول، واطرق الساعي ونجا من التقية، وهبت ريح العلماء . . »[٣٠].

هذه هي القضية العامة التي عرض الجاحظ اكثرها واهم حججها في صدر كتاب الحيوان، هي دعوة للعرب ان يدونوا معارفهم التي تجمعت لهم حتى عصره، وهي عنده جديرة بذلك كما ونوعاً، وليس ثمة مانع لهم من قصور او عجز، او مخافة او التزام خلقي، وكل الدواعي تدعوهم الى التأليف، ومنها حاجتهم اليها في امور معاشهم، وحاجتهم اليها في مواجهة اهل العصبية عليهم، واما كتب الاوائل فهي على جلالة مؤلفيها لم تعد تفي بالحاجة، ولايؤمن معها على فكر الامة.

ولامفر من ان يسأل الدارس نفسه: اكان في عصر الجاحظ من يرفض التأليف والتدوين، ويفضل عليه العلم الذي يسمع في حلقات الدرس وتحفظه الصدور ولايعيه الا العلماء، ونحن نعلم ان ذلك كان شأن رجال الحديث الشريف، الذين كانوا في الصدر الاول يمنعون الكتابة ثم اجازوا التدوين على حذر وحرج شديد[٣١] ثم ظلوا يقدمون السماع والحفظ على الكتاب، ولايعدون الكتاب الا وسيلة ثانية يستعان بها على ضبط المسموع، ولقد منعوا من ان يحدث الرجل بما لم يسمع مما قرأ في كتب غيره[٣٢] فهل كان لاهل الحديث من الاثر على المتكلمين اصحاب الجاحظ والعلماء والادباء مايوحي به كلامه، اكانوا يكرهون التأليف وتدوين العلم كما يكرهون ان يأخذ العالم علمه من الكتب؟

ان بعض الاجابة يكمن في ملاحظة الجدال الذي سجله الجاحظ بين من يفضل الشعر ومن يختار الكتاب، واذا كنا نعد هذا الحوار انشاء جاحظيا فقد ذكرنا انه في اصله قضايا فكرية كانت موجودة لايامه لم يختلقها اختلاقا، واية ذلك ان الجاحظ نفسه اورد في الحيوان قصيدتين مطولتين لبشر بن المعتمر موضوعهما هو الحيوان وتبصير الناس بمواضع العبرة في خلقه المعجز وغرائزه وسلوكه ويظهر ان هذا المتكلم المشهور في عصر الجاحظ كان على سنة العرب يفضل الشعر لانه اسير واقوى على البقاء واقل

---

٣٠ ـ مجلة المورد. العدد الرابع، المجلد السابع ص ٢٢٧ وفيه واطرق السامع صوابه كما اظن الساعي اي الواشي وفيه ونجا من التقية ـ صوابه كما اظن ونجا نجم التقية كما في العبارة السابقة.

٣١ ـ علوم الحديث. د. صبحي الصالحي، بيروت ١٩٨٤، ص ١٥ انظر الفصل الثاني ص ١٤ ـ ٤٩ وبخاصة ص ٤٦.

٣٢ ـ ادب الاملاء للمعاني، ص ١٠ بيروت ١٩٨١، معرفة علوم الحديث للحاكم، بيروت ١٩٧٧، ص ٢٥٩.

تعرضا لفساد النسخ وتغيير الوراقين، والجاحظ نفسه يوردهما معتذرا عارفا لفضل الشعر على النثر من بعض الوجوه التي يحرص عليها المؤلفون واهل العلم. يقول الجاحظ في تقديم القصيدتين: «وقد كان يمكننا ان نذكر من شأن هذه السباع والحشرات بقدر ماتتسع له الرواية من غير ان نكتبهما في هذا الكتاب، ولكنهما تجمعان امورا كثيرة اما اول ذلك فأن حفظ الشعر اهون على النفس، واذا حفظ كان اعلق واثبت وكان شاهدا، وان احتيج الى ضرب المثل كان مثلا»[٣٢].

ومالنا لانذكر ان الجاحظ كلف نفسه ان يؤلف كتبا ورسائل في مقالات لايذهب اليها وفي فرق ليس هو منها حين وجد ان اهلها ومن هو اولى بها من اصحابها قد احجموا عن ذلك، اما تقية او تهيبا علميا او عدم اقتناع بجدوى ذلك، فنصب هو نفسه ليؤلف في مقالة العثمانية، وفي الزيدية من الشيعة، وفي مقالة النصارى ومثل ذلك ماكتبه من مفاخرات القبائل والاجناس، وليخلد ماتقاولت به امية وهاشم، وعدنان وقطحان، والسودان والبيضان، وماقالت الترك في نفسها، وكان يحاول ان يكون امينا في تخليد هذا كله وغيره حتى اتهم بأنه في رسالته عن النصارى بالغ في تزيين مقالتهم وبالغ في الاحتجاج لها حتى دلهم على مالم يكونوا فطنوا له من عند انفسهم،[٣٤] وهو يحدثنا بأنه كان يخلص في تصوير المقالات حتى يتهم بأنه من اهلها «وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية وانت تسمعني اقول في اول كتابي: قالت العثمانية والضرارية كما سمعتني اقول: قالت الرافضة والزيدية، فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول العثمانية، فهلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة وهلا كنت عندك من الناصبة لحكايتي، حجج الناصبة، وقد حكينا في كتابنا قول الاباضية والصفرية، كما حكينا قول الازارقة والزيدية. الخ»[٣٥].

اما الجاحظ نفسه فيذكر انه يصور هذه المقالات اتم تصوير بدافع من الامانة العلمية وليكون الرد عليها رضى لاهلها ولغيره لاسبيل الى تكذيبه ونقضه..[٣٦].

---

٣٣ ـ الحيوان ٦/٢٨٤ والقصيدتان في الحيوان ٦ ـ ٢٨٤، ٢٩١ وفي فهرست ابن النديم ص ١٨٤ ان بشرا كان شاعرا وانه «نقل من الكتب في معاني شتى الى الشعر ما انا ذاكره فمن ذلك كتاب التوحيد، كتاب حدوث الاشياء، كتاب الرد على المجوس... الخ.»

٣٤ ـ تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مصورة دار الكتاب العربي، بيروت عن طبعة مطبعة كردستان ١٣٢٦ هـ، ص٤١.

٣٥ ـ الحيوان ١/١١.

٣٦ ـ رسائل الجاحظ: هارون الفتيا ١ ـ ٢١٤ ولاعذر لمن كتب كتابا وقد غاب عنه خصمه وقد تكفل بالاخبار عنه في ترك الخيطة له، والقيام لكل ماحتمله قوله ومثله في المورد عدد ٤ مجلد ٧ الجوابات في الامامة ص ٢٢٦، الزيدية ص ٢٣٨.

واما ان فأرى ان الجاحظ عرف مالهذه المقالات من قيمة ثقافية ومكانة حضارية في مجمل تاريخ الامة[٣٧] فنفس بها عن ان تضيع وتتبدد ولايحفظ الا اقلها اذا ظلت مواضيع حديث بين الرجال، وقد تجرى بها السنة الشعراء الذين ظلوا الى عصر الجاحظ وبعده يتحدثون بأسم جماعاتهم، فهذا شاعر الشيعة وذاك شاعر عثماني، وثالث مرجيء، وبشار يفضل النار على الطين، فيرد عليه صفوان الانصاري الذي يفضل الطين على النار،[٣٨] وهناك شاعر زنجي يرد على اشارة مجحفة في شعر جرير فيجمع اسماء العرب من ابناء الزنجيات ويشيد بأبطالهم[٣٩] ويهجو الكميت قحطان، فيرد عليه ابو نؤاس ودعبل وينقضان عليه قوله[٤٠] وهذا الشعر كله يلتبس على الناس، وتدق اشاراته على فهم اكثرهم، ويضطر الجاحظ ان يشرح اكثر مايورد منه، وان يتكلف تعليل مايرسله الشعراء من غير علة، وان يحتج لما لم يحتجوا له، فلاعجب اذا رأينا الجاحظ في اخريات حياته «يصيح بأمته ان تلتفت الى التأليف وان تدون فكرها في الثوب النثري الذي يتسع له «فما ينتظر العالم بأظهار ماعنده الخ».

وتلك حدود القضية العامة التي تدور حولها مقدمة كتاب الحيوان كما اراها. . . ولقد ظلت تصاحبه في بقية الكتاب مؤثرة في منهجه وصورة تصنيفه ومفردات اقواله، وقد اسس من البدء رأيا جريئا ثم مضى يؤكده ويصدقه فزعم انه وجد كفايته بما عند العرب من العلم بالحيوان، ومضى في كتابه يستخرج الدفين من العلم، والخبيء من الملاحظة الدقيقة من شعر الاعراب والبدو وحكاياتهم المأثورة، وقد لاحظ ذلك الاستاذ المحقق الجليل عبدالسلام هارون فذكر ان مصدر الحيوان الاول هو الشعر العربي[٤١] ولاحظه ايضا الاستاذ الدكتور الحاجري في كتابه الممتاز عن

---

٣٧ ـ يسخر الجاحظ من التطرف والتعصب عند المتكلمين من اصحابه بخاصة ويرى ان النفاق ومداراة النقص والعيوب هي الاصل فيه «ونسك المتكلم التسرع الى اكفار اهل المعاصي وان يرمي الناس بالجبر او بالتعطيل او بالزندقة يريد ان يوهم امورا منها ان ذلك ليس الا من تعظيمه للدين والاغراق فيه، ومنها ان يقال لو كان نطقا مرتاباً او مجتنحا على بلية لمار من الناس. . ولم نجد في المتكلمين انطق ولا اكثر عيوبا ممن يرمي خصومه بالكفر.» الحيوان ١ /١٤٧.

٣٨ ـ البيان ١ ـ ٢٧ لعنوان الانصاري، ١/٣١ لسليمان الانصاري.

٣٩ ـ رسائل الجاحظ: هارون ١/١٨٢، ١/١٩٠.

٤٠ ـ شعر الكميت ت د. داوود سلوم بغداد ١٩٦٩: ٢/١٠٩ ـ ١٣٤ ديوان ابي نؤاس، مصر ١٣٢٢ هـ، ص ١٢٨.

٤١ ـ مقدمة الحيوان ١/١٨ «والثاني وعليه كان اكثر اعتماده الشعر العربي.»

الجاحظ . .»[42]. ونضيف الى مالاحظناه ان الجاحظ قال في الشعر العربي قولين اثنين عجيبين، فزعم مرة انه لم يقرأ في كتب الاوائل شيئا الاوجد مثله في شعر العرب[43] وزعم في الاخر ان ليس في الشعر العربي ـ لو ترجم ـ علم لايعلمه الذين يترجم الى لسانهم،[44] وقد يكون كل من القولين للجاحظ نفسه، وان كنا نرجح ان القول بغزارة علم الاعرب هو قول الجاحظ، وانه يحكي الاخر عن غيره، واذا لم يكن بد من الجمع بين القولين والتوفيق بينهما فحاصلهما ان علم العرب بالحيوان، يساوي علم غيرهم لاينقص عنه ولايزيد عليه. وان الجاحظ على كل حال اراد ان يؤلف كتابا في الحيوان معتمدا على مادة علمية متفرقة في الشعر العربي. . وكبر عمله في الكتاب جمع هذه المادة والتفتيش عليها، والتأليف بينها وتصنيفها واكمال نقص فيها ان وجد وفحص صدقها ودقتها حين تشتط وتجمح الى الخيال الشعبي، ولقد فرض على الجاحظ ذلك النمط من التأليف الذي نقرأه في كتابيه في الحيوان والبيان، القائم على التحول الحر بين المواضيع والاساليب فهو ليس عالما ينشيء كتابا بما عنده من علم بموضوعه، بل عالم ينوب عن امته ليؤلف كتابا من علمها المفرق المشتت بين الاخبار والاشعار ليضاهي به علم امم اخرى.

ويبدو لنا ان موقف الجاحظ من كتاب ارسطو في الحيوان بخاصة يكمل موقفه من الشعر العربي. . ففي حيوان ارسطو ـ عند الجاحظ ـ غلط ونقص وخيال غير علمي ومزاعم لاتصدقها التجربة، وفي الشعر العربي علم دقيق، وملاحظة دقيقة، وخبرة ولدتها الحاجة، ومن هنا كان نقد الجاحظ لارسطو نقدا قاسيا لايتسامح فيه، اراد منه ـ دون شك ـ ان ينقص هيبته في نفوس علماء عصره، فلا ينظروا اليه على انه علم لاسبيل للاستدراك عليه او الزيادة فيه، ومن اهون صور هذا النقد ان يرد الغلط والضعف الى المترجم. . . او النساخ، وهذا ماقاله الجاحظ فيما رواه عن ارسطو من عداء الثعلب للزرّق دون سائر الجوارح فهو يقول في ذلك «لعل المترجم قد اساء في الاخبار عنه»[45] وهو قوله ايضا في الذي نسب الى ارسطو عن الشهب من كلام. . . .[46].

---

٤٢ ـ الجاحظ، الحاجري ص ٤٢١ «فلاحظ قبل كل شيء انه يضع الثقافة العربية منها في المكان الاول. . الخ.»

٤٣ ـ الحيوان ٣/٢٦٨.

٤٤ ـ الحيوان ١/٧٥ «مع انهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم.»

٤٥ ـ الحيوان ٢/٥٢

٤٦ ـ الحيوان ٦/٢٨٠

ومن صور هذا النقد تشكيك الجاحظ في دقة ملاحظة ارسطو ومثال ذلك انه لم يلاحظ من العجيب في خلق الفيل غير قصر عنقه، «وماأعجب ماقرأت في كتاب الحيوان لصاحبه المنطق، وجدته قد ذكر رأس الفيل وقصر عنقه، ولم يذكر انقلاب لسانه، وذلك اعجب مافيه، ولم يذكر في كم يضع، ولامقدار وزن اعظم الانياب، وكيف يخرج من بطن امه نابت الاسنان. . .»[٤٧].

وقد يغض الجاحظ من حيوان ارسطو بأختيار غرائب معلوماته التي تخالف البديهة، نحو زعم صاحب المنطق ان طائرا عندهم يبني عشه من الدار صيني، فيتساءل الجاحظ:

كيف علم هذا الطائر بوجود هذا النبات في بلاده البعيدة وهو لم يره ولم يشمه وليس من طعامه، وكم مرة سيطير هذه المسافة البعيدة ليحمل كفاية عشه منه، مع ان العش في اخر الامر لايكون وطيئا وثيرا. . .[٤٨] ومن هذه الغرائب مانقله بقوله: «وقد زعم صاحب المنطق ان الكلاب السلوقية كلما دخلت في السن كان اقوى لها على المعاظلة. . . وهذا غريب جدا». . .[٤٩] ومثله «وزعم صاحب المنطق ان ثورا فيما سلف من الدهور سقد والقح من ساعته بعد ان خصي. . فأذا افرط المديح وخرج من المقدار او افرط التعجيب وخرج من المقدار احتاج صاحبه الى ان يثبته بالعيان، او بالخبر الذي لايكذب مثله والا فقد تعرض للتكذيب، ولو جعلوا ـ حد كتبهم خبرا او حكاية وتبرءوا من عيبه ماضرهم ذلك، وكان ذلك اصون لاقدارهم، واتم لمروءات كتبهم»[٥٠].

ويعارض الجاحظ قول ارسطو بقول غيره ليشير الى ان ضعفه ظاهر بين، ولنقرأ قوله: «زعم صاحب المنطق انه ليس في الطير اجفى لفراخه من العقاب، وانه لابد من ان يخرج واحدا، وربما طردهم جميعا حتى يجيء طائر يسمى كاسر العظام فيتكفل به، ودريد بن الصمة يقول:

كأني وبزى فوق فتخاء لقوة لها ناهض في وكرها لاتجانبه[٥١]

---

٤٧ - الحيوان ٧/٢٢٦

٤٨ - الحيوان ٣/٥١٧

٤٩ - ٣/٥٣٣

٥٠ - وفيه ولو جعلوا حركتهم خبرا او حكاية، تحريف اظن صوابه جعلوا حشو كتبهم انظر الحيوان ٤/٢٢٠، ٥/٥١٢

٥١ - الحيوان ٦/٣٣٨، الحيوان ٧/٣٧ عارض ارسطو

ويعارض الجاحظ قول ارسطو في الفيل على هذا النحو: والقرد يأكل بيديه، وينقي الجوزة، ويتفلى ويفلي انثاه، والدب الانثى . . قال صاحب المنطق: ليس شيء من ذوات الاربع الا وتصرف يديه في الجهات اقل من تصرف يدي الفيل فالجاحظ يكتفي بأن يضرب مثلين من القرد والدب للحيوان الذي يصرف يديه اكثر من الفيل ناقضا زعم صاحب المنطق بالمعارضة دون التصريح[٥٢].

ويشتد نقد الجاحظ ويبلغ السخرية بأرسطو احيانا، وذلك حين يجد له قولا لايرتفع الى مستوى مايناقش من الاراء والملاحظات، ومن هذا اللون من النقد الساخر مارواه حول زعم صاحب المنطق في الحية ذات الرأسين: «. . . فسألت اعرابيا عن ذلك فزعم ان ذلك حق فقلت له: فمن اي جهة الرأسين تسعى، ومن ايهما تأكل وتعض، فقال: فأما السعي فلا تسعى، ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل، واما الاكل فأنها تتعشى بفم وتتغدى بفم واما العض فأنها تعض برأسيها معا. . فأذا به اكذب البرية»[٥٣]. . .

ومن سخريته مارواه عن رجل من البحرين حول ملاحظة ارسطو ان السمك يبتلع مع طعامه شيئا من الماء: «فكان من جوابه انه قال لي، مايعلم هذا الا من كان سمكة مرة او اخبرته به سمكة، او حدثه بذلك الحواريون اصحاب عيسى، فأنهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح»[٥٤]

ومااشك ان الجاحظ تعمد هذه السخرية البالغة، ويستوى عندي ان يكون سأل بحريا واعرابيا وان يكون اختلق ذلك وولده توليدا.

على ان اقسى ماكان الجاحظ على ارسطو وحيوانه صمته المدوى عن قوله في دم البعير، جاء في الحيوان: لان الدم الجاري عن كل شيء بين لايغيض في الارض، ومتى جف وتجلبّ فقرفته رأيت مكانه ابيض. . الا ان صاحب المنطق قال في كتابه الحيوان: كذلك الدماء الا دم البعير[٥٥]. .

اما انا فأرى هذا الصمت الجاحظي اقتل من اي كلام يقال وابلغ . . . ولعله يتهم المترجم ويربط من طرف خفي بين هذا القول والاصل فيه وبين زعم اخر في البعير سمعه من سلمويه وابن ماسويه متطبب الخلفاء «انه ليس على الارض جيفة انتن نتنا

---

٥٢ ـ الحيوان ٦/٢٠٧

٥٣ ـ الحيوان ٤/١٥٦

٥٤ ـ الحيوان ٦/١٧ وانظر ايضا الحيوان ٥/٥٤١

٥٥ ـ الحيوان ٤/١٥٦

ولا اثقب ثقوبا من جيفة بعير، فظننت ان الذي وهمها ذلك عصبيتها عليه، وبغضها لأربابه، ولان النبي صلى الله عليه وسلم هو المذكور في الكتب براكب البعير. . .»[٥٦].

هذا لون من النقد ظاهر عرفه غير واحد من الدارسين ومنهم محقق الحيوان، وثمة وجوه اخرى من المعارضة يجدها قارىء الحيوان بين علم العرب واليونان تتصل بأبواب المعارف وجوامعها ولاتقف عند الفروع والجزئيات، ولانشغل انفسنا بتسوية الجاحظ بين ماعرفه العرب من عند انفسهم وماقاله ارسطو، فقد ذكر الجاحظ ذلك صريحا واضحا حين زعم انه قلما قرأ للاطباء والعلماء شيئا في الحيوان الا وجد للعرب في شعرهم او اخبارهم مثله . . غير اننا نلاحظ انه جاوز ذلك احيانا الى مكاثرة ارسطو ومضاهاة معارفه بأضعافها من المعارف العربية . . . ومثال ذلك انه ذكر عن اطعمة الكلب ودوائه الخبز الذي قد يبس، والرأس المطبوخ، وقطعة من الية وصوف شاة معجونا بسمن البقر وهو علاج للديدان، وان يحقن الكلب، ويكوى بين عينيه كل ذلك عن العرب، اما صاحب المنطق فأنه زعم «ان الكلاب اذا كان في اجوافها الدود اكلت سنبل القمح فتبرأ وزعم ان الكلاب تأتي حشيشة تعرفها بعينها فتأكل منها فتبرأ»[٥٧].

ويذكر الجاحظ ولد الذئب من الضبع «السمع» وولد الضبع من الذئب «العسبار» والديسم وغيرها كثير.

ويكاثر بذلك ارسطو الذي لم يذكر من الخلق المركب الا ماكان الكلب قسيما فيه للذئب او الثعلب او الحيوان المسمى طافريس وكأن ذلك لم يكف الجاحظ . . فقد وجدناه يبرأ من اقوال الناس في الخلق المركب، ويذهب الى ان شعر العرب لايحقق القول فيه كله ويأخذ على ارسطو انه قبلها وخلدها على نفسه في كتابه، «وقد سمعنا ماقال صاحب المنطق من قبل ومانظن بمثله ان يخلد على نفسه في الكتب شهادات لايحققها الامتحان ولايعرف صدقها اشباهه من العلماء، وماعندنا في معرفة ماادى الا هذا القول، واما الذين ذكروا في اشعارهم السمع والعسبار فليس في ظاهر كلامهم دليل على ماادعى عليهم الناس من هذا التركيب المختلف فأدينا الذي قالوا وامسكنا

---

٥٦ ـ الحيوان ١/٢٤٦ . وانظر الجاحظ : الحاجري ص ٢٠٤

٥٧ ـ انظر كتاب د. وديعة طه النجم. منقولات الجاحظ عن ارسطو في كتاب الحيوان. الكويت ١٩٨٥ ص ١٠٦ وهي تحيل الى الحيوان ٢/٥٠ لانها تهتم بما ينقله الجاحظ من ارسطو وبذلك يفوت على الدارس ان الجاحظ بدأ ينقل من مصادره العربية معلومات عن علاج الكلب وغذائه في ٢/٤٨ لتأتي ملاحظة ارسطو ضئيلة في اخر حديثه عن الموضوع.

عن الشهادة اذ لم نجد برهانا وللناس في هذا الضرب ضروب من الدعوى وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها»[٥٨].

وقد يغض الجاحظ من وجاهة باب برأسه من معارف ارسطو في الحيوان . . فقد اطال النقل عنه في باب العداوة بين اجناس من الحيوان وعقب عليها بأنها اقل طرافة ودلالة على الاعجاز مما يذكره «اصحابنا» ذلك ان ارسطو اقتصر على العداوة المتوقعة بين الاكفاء «وما اصحابنا فحكوا وجوه العداوة التي بين الفيل والسنور وهذا اعجب، وذهبوا الى فزع الفيل من السنور ولم يروه يفزع مما هو اشد واضخم، وهذا الباب على خلاف الاول، كأن اكثر ذلك الباب بني على عداوة الاكفاء» ومضى الجاحظ في ذكر هذا الباب العجيب، فالشاة من الذئب اشد فرقا منها من الاسد والحمام تخاف من الشاهين مالاتخاف من الجوارح الاخرى وتخاف الفأرة من السنور اكثر من خوفها من ابن عرس . . والدجاجة من الثعلب . . . . الخ[٥٩].

لم يكن حيوان ارسطو اذن مصدرا للجاحظ يكثر من النقل منه بل كتابا مشهورا مهيبا يريد ان يتجاوزه وان يفوقه، وان يكون ذلك تجربة تدفع غيره من علماء العربية الى التأليف والابداع لاتردهم عن ذلك هيبة مفكر من الاوائل بالغة مابلغت مكانته في حضارة الانسان.

وماقاله الجاحظ في كتاب الحيوان اغناه عن اعادة القول في كتابه التالي وهو كتاب البيان والتبيين، وهدف الجاحظ في الاثنين واحد، ومنهجه واحد، وقد الف الكتابين بالتوالي كما يرى عبدالسلام هارون، او الف البيان خلال تأليف الحيوان كما يقول الحاجري وكان في البيان يؤلف للعرب كتابا في الادب والخطابة يغنيهم عن المترجم الى لغتهم من كتب الفرس واليونان والهند، فصلة الادب والبلاغة بالقرآن الكريم وعقائد المسلمين اظهر من صلة الحيوان وعجائب خلقه بها، وفخر العرب بأدبهم وشعرهم اشهر واعرف من ادعائهم العلم بالحيوان. ومع ذلك فأن للجاحظ في البيان كلاما يدل على هدفه هذا من تأليفه، ولقد كان عجولا يشعر بأن وقته يضيق عن اطالة القول وتقليب الفكر، فوجدناه يستبعد بضربة واحدة سريعة اليونان والهند،

---

٥٨ ـ بدأ الجاحظ حديثه عن الخلق المركب في ٢/١٤٩ بالشبوط ثم الزرافة ١٥١ ثم الابل ١٥٣ ثم العسبار ١٨١ فالضبع ص ١٨١ ثم الديسم ص ١٨٣ ثم بدأ النقل عن ارسطو في ص ١٨٣ . وانظر منقولات الجاحظ ص ١٠٢ .

٥٩ ـ منقولات الجاحظ ص ١٠٦ وهنا ايضا نقتصر د. النجم على النص المنقول دون الاشارة الى النقد الذي عقب به الجاحظ على مانقل، والعداوة التي يراها اعجب مما رواه ارسطو وانظر الحيوان ٢/٥٠ ـ ٥٤ .

ولايستبقي غير الفرس فيمن يحق له ان يفاخر العرب خطابة وبلاغة . . » وجملة القول انا لانعرف الخطب الا للعرب والفرس، فأما الهند فأنما لهم معان مدونة، وكتب مخلدة لاتضاف الى رجل معروف، ولا الى عالم موصوف، وانما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة، ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتميز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه، وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ولم يذكروه بالخطابة»[٦٠].

اما الفرس فللجاحظ على خطابتهم مآخذان، اولهما انهم اهل صنعة وتقدير ولاحظ لهم من البداية: «الا ان كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فأنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وكل شيء للعرب فأنما هو بديهة وارتجال . . .»[٦١].

والمأخذ الاخر هو ان كل مايتباهى به الفرس من الخطابة قديم يروونه عن اسلافهم، وهو امر مريب، يوحي بأن هذا المأثور المترجم الى العربية عن قدماء الفرس قد يكون مما وضعه وصنعه اهل العصبية الفارسية من امثال ابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم محتذين فيه بلاغة العرب وكلامهم مما اطلعوا عليه وقتلوه علما والا فأين ذهبت بلاغة فارس؟ ولم يكن فيهم خطباء بلسانهم في عصر الجاحظ ، وعصور الاسلام؟ وليست كذلك الخطابة العربية التي يصدق حاضرها ماضيها . . وتشهد بلاغة اهلها المعاصرين للجاحظ بأن مايقال في آبائهم واسلافهم حق وصدق . . .

يقول الجاحظ «ونحن لانستطيع ان نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، اذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وابي عبيد وعبدالحميد، وغيلان يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير، واخرى انك متى اخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الاعراب الخلص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مغلق، او خطيب مصقع، علم ان الذي قلت هو الحق وابصر الشاهد عيانا فهذا فرق مابيننا وبينهم»[٦٢].

وتفوق العرب في الشعر على الامم اظهر وايسر اثباتا عند الجاحظ فالشعر العربي موزون موقع، وشعر غيرهم ليس كذلك وانما هو كلام يسمونه شعرا «ومالفرق بين اشعارهم وبين **الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعرا**، وكيف صار النسيب في اشعارهم وفي كلامهم الذي ادخلوه في غنائهم وفي الحانهم انما يقال على ألسنة

٦٠ ـ البيان والتبيين ٣/٢٧ .
٦١ ـ البيان والتبيين ٣/٢٨ .
٦٢ ـ البيان والتبيين ٣/٢٩ .

نسائهم، وهذا لايصاب في العرب الا القليل اليسير، وكيف صارت العرب تقطع الالحان الموزونة على الاشعار الموزونة، فتضع موزونا على موزون، والعجم تمطط الالفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن، فتضع موزونا على غير موزون»[٦٣].

ولسنا نبعد اذن حين نظن ان الجاحظ اراد ان يؤلف كتابا جامعا في خطابة العرب وبلاغتهم مشتقا من تجربتهم الطويلة واثارهم المستفيضة على السنتهم، واقوال افذاذهم ومشاهيرهم ولم يرد ان ينظرّ للادب العربي بنفسه، ولا ان يصور تجربته الخصبة الطويلة في الكتابة واسلوبه المميز في الانشاء والابداع، كان في كتابيه الحيوان، والبيان يفكر بعقل امته، ويجمع شتاتا متفرقا من تراثها[٦٤] وينطق بلسانها ويضع في يدها حصيلة تواجه بها الامم، او قل بديلا عربيا اصيلا لما ترجم من تراث الامم. وكان في مبلغ علمي اول من تصدي بالرأي وبالعمل لتلك الفرية الظالمة التي تزعم ان حضارة الامة حضارة مترجمة منقولة قلت فيها الاصالة، وندر فيها الابداع والابتكار ودارت منجزاتها على الفروع والتحليل دون الاصول والتركيب. . وهي فرية قديمة احياها من احياها في عصرنا وكان الجاحظ قد سمعها ودونها ونقل عن اصحابها قولهم وقال: لولا ماعرفوكم من ابواب الحملانات لم تعرفوا صنعة الشبه، ولولا غضار الصين على وجه الارض لم تعرفوا الغضار على ان الذي عملتم ظاهر فيه التوليد، منقوص المنفعة عن تمام الصيني. . وكذلك جميع ماتهيأ لكم، ولستم تخرجون في ذلك من احد امرين، اما ان تكونوا استعملتم الاشتقاق من علم ماورثوكم، واما ان يكون ذلك تهيأ لكم من طريق الاتفاق. . «وكذلك لايخلو جميع امركم من ان يكون اتفاقا او اتباع اثر»[٦٥] وكان حيوان الجاحظ وبيانه برهان ابي عثمان على بطلان هذه الفرية. ومالبثت صيحة الجاحظ ان بلغت ابا حنيفة الدينوري فتابع هذا الدفاع المجيد عن اصالة الفكر عند الامة. . فمضى يجمع معارفها في النبات في كتابه المشهور، [٦٦] ثم في كتابه الاخر في الانواء والنجوم وهو لايحضرنا في ايامنا، ولكننا نقرأ صفته عند صاعد الاندلسي الذي يقول فيه: ولأبي حنيفة الدينوري احمد بن داوود اللغوي كتاب شريف في الأنواء تضمن ماكان عند العرب من العلم بالسماء والانواء ومهاب الرياح وتفصيل الازمان وغير ذلك من هذا الفن. .[٦٧].

---

٦٣ ـ البيان والتبيين ١/ ٣٨٤.

٦٤ ـ لاحظ الاستاذ الدكتور الحاجري انه يهمل من الحيوان مالايجد ذكرا له في الشعر العربي ولكنه ذهب الى انه اراد من الشعر خدمة الجانب الفني في تأليفه. . انظر الجاحظ ص ٤٢١ ـ ٤٢٢. =

٦٥ ـ الحيوان ١/٨٣.

٦٦ ـ كتاب النبات جـ ٣ النصف الاول من جـ ٥ وهو كتاب معارف من فصوله النبات المتصل بالاصباغ والسلاح . . . الخ.

٦٧ ـ طبقات الامم لصاعد بن احمد الاندلسي، مطبعة محمد محمد مطر، مصر دون تاريخ.

المصـــــادر

١ ـ ادب الاملاء والاستملاء. للسمعاني. بيروت ١٩٨١.

٢ ـ البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون. ط الرابعة، مصر ١٩٧٥.

٣ ـ تأويل مختلف الحديث. ابن قتيبة (مصورة) دار الكتاب العربي في بيروت عن طبعة مطبعة كردستان. مصر ١٣٠٦هـ.

٤ ـ الجاحظ، حياته، واثاره د. طه الحاجري. مصر، المعارف ١٩٧٦.

٥ ـ الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون. البابي الحلبي، مصر ١٣٥٦ ـ ١٣٦٤هـ الطبعة الاولى.

٦ ـ ديوان ابي نؤاس. مصر ١٣٢٢ هـ.

٧ ـ رسائل الجاحظ. تحقيق عبدالسلام ها رون الخانجي بمصر ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥.

٨ ـ شعر الكميت. د. داوود سلوم. بغداد ١٩٦٩.

٩ ـ طبقات الام. . صاعد بن احمد الاندلسي. طبعة محمد محمد مطر. مصر(دون تاريخ).

١٠ ـ كتاب الفهرست للنديم. تحقيق رضا تجدد. طهران ١٩٧١.

١١ ـ كتاب النبات، ابو حنيفة الدينوري، ج٣ والنصف الاول من ج٥ تحقيق برنهارت لفين، بيروت ١٩٧٤.

١٢ ـ علوم الحديث. د. صبحي الصالحي. بيروت ١٩٨٤.

١٣ ـ مجلة المورد، المجلد السابع، العدد الرابع.

١٤ ـ معرفة علوم الحديث. الحاكم. بيروت ١٩٧٧.

١٥ ـ ملامح يونانية في الادب العربي. د. احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧.

١٦ ـ منقولات الجاحظ عن ارسطو في كتاب الحيوان. منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٩٨٥.